

الإثنوغرافيا والرقمي : تفكيك الأنطولوجيات الافتراضية وإعادة بناء المنهجية الإثنوغرافية

Ethnography and the Digital: Deconstructing Virtual Ontologies and Reconstructing Ethnographic Methodology

سليم سهلي *

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي (الجزائر) ، sahli-salim@univ-eloued.dz

تاريخ الاستقبال: اليوم/الشهر/السنة؛ تاريخ القبول: اليوم/الشهر/السنة؛ تاريخ النشر: اليوم/الشهر/السنة

ملخص: شهدت البشرية في العقود الأخيرة أول ثورة معرفية وتكنولوجية، التي أصبحت تعرف اليوم بالثورة الرقمية، والتي غزت جميع مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية. هذا التحول العميق دفع بالإثنوغرافيا إلى تحديد موقع جديد لنفسها، وإعادة التفكير في مفاهيمها ومناهجها وتطبيقاتها. فقد أصبح من الواضح أن الإثنوغرافيا التقليدية لم تعد كافية لوصف وفهم التحولات التي أحدثتها الرقمنة في بنية المجتمعات. ومع ظهور مفاهيم جديدة تخرج عن نطاق "الدراسة عن قرب" التي اقترحها كلود ليفي شتراوس، برزت الحاجة إلى تفسير وتأويل هذه التحولات الرقمية وفق مناهج بحثية جديدة.

يتساءل الباحثون: إلى أي حد تظل الإثنوغرافيا كمنظومة منهجية قادرة على تفكيك الفضاءات الرقمية؟ ومن هنا، بدأ علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين في استكشاف المنظورات الإثنوغرافية الجديدة التي تتماشى مع التحديات الأنطولوجية التي تثيرها العوالم الافتراضية. هذه المنظورات تستدعي تأسيس طرائق بحثية مبتكرة تتيح إعادة النظر في التصورات التقليدية للإثنوغرافيا وتحديد أساليب مناسبة لدراسة وتفسير التحولات التي تطرأ على العلاقات الاجتماعية والهويات في الفضاءات المرقمنة.

الكلمات المفتاح: المنهجية الإثنوغرافية؛ العوالم الافتراضية؛ المنهجية الإثنوغرافية الحديثة؛ الأنطولوجيا الافتراضية؛ التحولات

الاجتماعية

Abstract: he first cognitive and technological revolution, which would later be called the digital revolution, has begun to permeate modern social life. Perhaps this is why ethnography has defined for itself a new position, reconsidering concepts, methodologies, and applications. There has been doubt that classical ethnography has helped researchers describe digital transformations. With the emergence of new concepts that go beyond the scope of close study, as expressed by "Claude Lévi-Strauss," which require interpretation, understanding, and hermeneutics according to paradigms and research paths, we posed the following question: To what extent is ethnography considered a sufficient system to deconstruct digital spaces? Therefore, contemporary anthropologists have attempted to address ethnographic perspectives and interpret virtual worlds in light of the ontological questions and challenges raised. This is to establish new methods through which we reconsider traditional views and old perceptions of ethnography's work within the digital space.

Keywords: Ethnographic Methodology ; Virtual Worlds ; Modern Ethnographic Methodology ; Virtual Ontologies ; Social Transformations

في العصر الرقمي الحالي، أصبح الفضاء الافتراضي جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية، حيث تتداخل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل متزايد مع العالم الرقمي. تمثل هذه التحولات الرقمية تحدياً حقيقياً لمجالات البحث الاجتماعي والإنساني، وبالأخص **الإثنوغرافيا** التي كانت تعتمد على التواجد المادي والاقتراب من موضوعات الدراسة في بيئاتها الطبيعية. مع ظهور الفضاءات الرقمية، باتت الإثنوغرافيا مطالبة بمراجعة مناهجها التقليدية وتوسيع نطاق أدواتها لتشمل هذا الفضاء غير الملموس والمتغير باستمرار.

الفضاء الرقمي يشكل ميداناً جديداً مليئاً بالتحديات التي تتطلب **إعادة تأويل** المفاهيم الأنثروبولوجية المعتادة، حيث لا يمكن فهم التفاعلات الاجتماعية والتبادل الثقافي عبر الإنترنت بنفس الطرق التي اعتدنا عليها في المجتمع التقليدي. في ظل هذه التحولات، برزت الحاجة إلى **منهجيات جديدة** تتجاوز الملاحظة المباشرة والأدوات التقليدية التي كانت تُستخدم لفهم المجتمعات البشرية. فالأفراد في الفضاءات الرقمية قد يتخذون هويات متعددة، ويعيشون في **عالم افتراضي** بعيد عن الزمان والمكان المعتاد، مما يجعل عملية التفسير والتأويل أكثر تعقيداً، إلى جانب ذلك، تطرح **الإثنوغرافيا الرقمية** تحديات تتعلق بـ **الخصوصية** و **الأخلاقيات**، إذ يصبح من الصعب تحديد حدود المشاركة و التفاعل في بيئات غير تقليدية، مثل الألعاب الإلكترونية أو المنصات الاجتماعية. وبالتالي، يصبح من الضروري على الباحثين تطوير استراتيجيات جديدة تساهم في فهم الظواهر الرقمية المعقدة والتفاعل الفعال معها.

من خلال هذه الدراسة، نسعى إلى **إعادة النظر** في إمكانيات **الإثنوغرافيا الرقمية** وكيف يمكن لهذه المنهجية أن تكون أداة قوية لتحليل **المجتمعات الرقمية** وفهم ديناميكياتها الاجتماعية والثقافية، مع التركيز على **التحديات** التي تطرأ في عملية **التأويل** وتفسير التفاعلات في الفضاءات الرقمية.

1. الإثنوغرافيا الرقمية : تحديد المفهوم وأشكالية الممارسة

1.1 تعريف الإثنوغرافيا:

تُعد الإثنوغرافيا (**Ethnography**) منهجاً بحثياً يُعتمد عليه بشكل رئيسي في مجالات العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا لفهم الظواهر الثقافية والاجتماعية ضمن المجتمعات. يركز هذا المنهج على الملاحظة المباشرة والمشاركة الفعلية في الحياة اليومية للأشخاص الذين يتم دراستهم، وذلك بهدف وصف وتحليل الممارسات والعلاقات الاجتماعية في بيئاتها الطبيعية.

فالإثنوغرافيا مشتقة من كلمتين يونانيتين:

- **Ethnos** وتعني "الشعب" أو "الجماعة".
- **Graphia** وتعني "الكتابة" أو "الوصف".

وبمعنى المصطلح حرفياً "وصف الشعوب" (Geertz Clifford, 1973, p. 5).

يشير التعريف اللغوي إلى الجذور الإنسانية والعلمية لمصطلح الإثنوغرافيا، مسلطاً الضوء على الكتابة عن الشعوب عبر وصف دقيق لتفاصيل حياتهم اليومية، بما في ذلك أنماط معيشتهم، عاداتهم، تقاليدهم، والممارسات التي يمارسونها بشكل منتظم، فقد شهد امتداداً

يتجاوز التعريف اللغوي ليشمل دراسة الأنظمة الاجتماعية والثقافية من خلال التوثيق المنهجي للسلوكيات البشرية. يركز هذا المفهوم على توضيح ما يفعله الأفراد، وكيفية تفاعلهم مع محيطهم، وتحليل الأسباب الكامنة وراء تصرفاتهم، مع إيلاء اهتمام خاص للمعاني الضمنية التي تحملها، ولقد اختلف العديد من علماء الأنثروبولوجيا في تحديد مفهوم الإثنوغرافيا، وكيفية عملها ضمن سياق الممارسة، سنحاول رصد بعض التعريفات للإثنوغرافيا التي ستساعدنا على ضبط هذا المفهوم، والذي يعتبر مدخلا فهميا لمسألة تطبيقات الإثنوغرافيا في الفضاء المرقم، ومدى استيعاب هذه التحولات الرقمية ومن التعريفات نجد مايلي :

- **تعريف برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski)** يعتبر مالينوفسكي الإثنوغرافيا دراسة متعمقة ومنهجية لثقافة مجموعة معينة من الناس من خلال العيش معهم والانخراط في تفاصيل حياتهم اليومية، بهدف جمع بيانات دقيقة حول معتقداتهم، عاداتهم، ونظمهم الاجتماعية. ويصفها بأنها تحليل شامل للحياة الاجتماعية والثقافية كما يراها ويفهمها أفراد المجتمع موضوع الدراسة . (Malinowski Bronislaw, 1922, p25)

- **تعريف كليفورد غيرتز (Clifford Geertz)** يعرف غيرتز الإثنوغرافيا بأنها منهجية تُعنى بوصف الثقافات من خلال تحليل الرموز والأنظمة المعنوية التي يستخدمها الأفراد للتعبير عن معاني حياتهم. ويرى في الإثنوغرافيا أداة لفهم كيفية قيام الأفراد بإعادة تشكيل هوياتهم وواقعهم الاجتماعي عبر التفاعلات اليومية. (Geertz Clifford , 1973, p. 6)

- **تعريف مارغريت ميد (Margaret Mead)** تعرف ميد الإثنوغرافيا بأنها وسيلة لفهم تفاعل الأفراد مع بيئاتهم الاجتماعية والثقافية، مع التركيز على القيم والمعايير التي تنشأ نتيجة هذا التفاعل. ويُبرز تعريفها أهمية دراسة العوامل المؤثرة في تشكيل تلك القيم. (Margaret Mead , 1935, p. 42)

- **تعريف جيمس سبريادلي (James Spradley)** يرى سبريادلي أن الإثنوغرافيا هي دراسة تهدف إلى فهم المعاني الثقافية والسلوكيات الاجتماعية من خلال تحليل اللغة، الرموز، والطقوس التي يمارسها الأفراد في حياتهم اليومية، مما يُمكن الباحث من استخراج تفسير أعمق للثقافة قيد الدراسة. (James Spradley, 1980, p. 88)

- **تعريف بول ويليس (Paul Willis)** يُسلط ويليس الضوء على البُعد النقدي للإثنوغرافيا، مؤكداً أنها أداة بحثية لفهم طبيعة التفاعل بين الأفراد والمؤسسات الاجتماعية. كما يركز على الكشف عن القوى الهيكلية التي تؤثر في تشكيل الثقافة وتوجيه الممارسات اليومية داخل أي مجتمع. (Willis, 1977, p. 15)

2.1- الإثنوغرافيا الرقمية وفك شيفرة المفهوم :

بعد تحديد تعريف الإثنوغرافيا، يصبح من الضروري توضيح دلالة مصطلح الإثنوغرافيا الرقمية. يبدو أن هذا المفهوم يشير إلى ممارسات جديدة وغير مألوفة، خصوصاً فيما يتعلق بالمنهج البحثية، حيث نشأ هذا المصطلح نتيجة لبروز العوالم الرقمية التي تمتاز بخصائص تختلف عن تلك الخاصة بالعوالم التقليدية، سواء من حيث طبيعتها المادية أو الافتراضية، لهذا سنحاول حفر جينيولوجي في مفهوم الإثنوغرافيا الرقمية بما يحمله من استشكلات وصعوبات، بحكم أنه يمثل لحظة مهمة في ترسيم حدود الموضوع الجديد للإثنوغرافيا، فلو حاولنا تحديد مفهوم الإثنوغرافيا الرقمية، لوجدنا أنها مجاًلاً حديثاً في **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، وهي تقوم بتوسيع الممارسات الإثنوغرافية التقليدية التي تركز على الملاحظة المباشرة للأفراد في السياقات الافتراضية التي تتم على الإنترنت. كما نعين الانشغال عينه ونحن نقرأ على لسان **ديفيد هيل** حول تعريفه الإثنوغرافيا الرقمية الذي يعتبرها "دراسة التفاعلات الاجتماعية والأبعاد الثقافية في

الفضاءات الرقمية عبر أدوات البحث النوعي، مثل الملاحظة والمقابلات الرقمية. (Hill, 2007, p. 81) "إذاً، الإثنوغرافيا الرقمية توفر للباحث أداة لفهم العوالم الرقمية كما هي في الواقع، إذ تدمج بين الظروف الميدانية والبيئات الرقمية.

إذن تُعد الإثنوغرافيا الرقمية امتداداً للمناهج الإثنوغرافية التقليدية، تستهدف دراسة التفاعلات البشرية والظواهر الثقافية المتعلقة بالوسائط الرقمية، مثل الإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي والمنتديات الرقمية وغيرها من المساحات الافتراضية. تعتمد هذه المنهجية على الملاحظة المباشرة والمشاركة النشطة في البيئات الرقمية المعاصرة، إلى جانب تحليل ما يُنتج عبر الوسائط الرقمية، بما يشمل النصوص والصور والمقاطع المرئية. تتميز هذه الطريقة بملاءمتها الخاصة لدراسة المجتمعات التي تتمحور تفاعلاتها حول الفضاء الرقمي، حيث تنشط خارج القيود الزمانية والمكانية التقليدية. على عكس الإثنوغرافيا التقليدية، التي تركز على السياقات الميدانية المادية، تقدم الإثنوغرافيا الرقمية نطاقاً بحثياً موسعاً يتجاوز المواقع المادية نحو الأوساط الرقمية التي تُنشئ فضاءات افتراضية مشتركة. وبهذا، تصبح هذه المنهجية أداة مثالية لفهم الأنماط الاجتماعية والسلوكيات التي تتشكل داخل المجتمعات الافتراضية.

3-1. الأنطولوجيا الافتراضية:

تتجاوز الأنطولوجيا الافتراضية مجرد دراسة الوجود الرقمي إلى البحث في كيفية تشكّل المعاني والكيانات في البيئات الرقمية وتأثيرها على التجربة البشرية. فالوجود في الفضاءات الافتراضية ليس مجرد انعكاس للواقع المادي، بل يمكن أن يكون مستقلاً عنه أو متشابكاً معه بطرق جديدة. هذا يطرح تساؤلات حول طبيعة الهوية والسيولة الأنطولوجية، حيث يمكن للأفراد أن يتقمصوا هويات متعددة، تتغير وفقاً للسياقات الرقمية المختلفة. كما أن الحدود بين الواقعي والافتراضي باتت أكثر ضبابية، مع تأثير القرارات الرقمية على الحياة اليومية، سواء عبر الذكاء الاصطناعي، الميتافيرس، أو التفاعلات الاجتماعية عبر الإنترنت.

في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، يمكن دراسة الأنطولوجيا الافتراضية من خلال تأثير العوالم الرقمية على تشكيل الهوية والانتماء الاجتماعي. على سبيل المثال، المجتمعات الافتراضية التي تتشكل في ألعاب الفيديو الجماعية مثل *World of Warcraft* أو على منصات التواصل الاجتماعي تتيح للأفراد بناء هويات جديدة تتجاوز قيود الواقع المادي، حيث يمكن لشخص أن يكون محارباً افتراضياً أو ناشطاً رقمياً دون أن يكون له نفس الدور في حياته الواقعية. هذا يفتح نقاشاً حول ما إذا كانت هذه الهويات الرقمية مجرد امتداد للذات الواقعية أم أنها تخلق ذواتاً جديدة تماماً، وهو ما يتقاطع مع مفهوم سيولة الهوية لدى زيجمونت باومان، الذي يرى أن الهوية في العصر الرقمي أصبحت متغيرة ومتعددة، مما يعيد تشكيل العلاقات الاجتماعية والانتماءات الثقافية (Hill, 2007, p. 125).

2. أشكلة ممارسة الإثنوغرافيا في العوالم الرقمية:

شهدت الثورة الرقمية تحولات جوهرية في كيفية حدوث التفاعل الاجتماعي والثقافي بين الأفراد ضمن الفضاءات الافتراضية. مع التطور الهائل للإنترنت وانتشار منصات التواصل الاجتماعي، برزت الإثنوغرافيا الرقمية كأداة منهجية أساسية تساهم في تحليل هذه الديناميكيات الاجتماعية وفهمها. ورغم ذلك، فإن تطبيق الإثنوغرافيا في البيئات الرقمية يثير العديد من القضايا والتحديات المرتبطة بمسائل الخصوصية، تمثيل الهوية، والتطوير المستمر للأساليب البحثية المناسبة. يهدف هذا الانشغال إلى استعراض الأشكال المختلفة لممارسات الإثنوغرافيا الرقمية، مع تقديم تحليل نقدي للتحديات التي تواجه الباحثين العاملين في هذا المجال، بما يُضيء على طبيعة هذه المشكلات وآفاق الحلول الممكنة.

2.1. التحديات التي تواجه الإثنوغرافيا التقليدية في العصر الرقمي

تواجه الإثنوغرافيا في العصر الرقمي مجموعة واسعة من التحديات التي تمتد إلى أبعاد متعددة، تشمل المنهجية، والأطر الأخلاقية، والتحليل الأنطولوجي، وذلك نتيجة للتغيرات الجذرية التي طرأت على طبيعة التفاعلات الاجتماعية والبيئات الثقافية في الفضاء الرقمي. يمكن تلخيص أبرز هذه التحديات في عدة جوانب محورية. أحد أبرز التحديات يتمثل في كيفية جمع البيانات في البيئات الرقمية، إذ يعتمد المنهج الإثنوغرافي التقليدي على الملاحظة المباشرة والتفاعل الشخصي مع المجتمعات والسياقات المحيطة بها، مما يجعل العمليات البحثية أكثر وضوحًا وانسيابية في البيئات الواقعية. لكن في العصر الرقمي، تتحول التفاعلات الاجتماعية إلى أنماط غير مرئية أو غير ملموسة، وغالبًا ما تتوزع عبر منصات متنوعة مثل وسائل التواصل الاجتماعي، الألعاب الإلكترونية، والمدونات الرقمية. هذه الطبيعة المشتتة للتفاعل الرقمي تصعب على الباحثين استخدام الطرق التقليدية لجمع البيانات. فبينما تُنتج هذه التفاعلات الرقمية من خلال النصوص، الصور، أو مقاطع الفيديو، قد تكون هذه المعلومات مجتزأة أو غير كافية لتعكس تعقيد السياقات الاجتماعية والثقافية التي تحدث فيها. لذلك، صار من الضروري للباحث أن يطوروا مهاراتهم وأدواتهم لجمع البيانات الرقمية باستخدام تقنيات متقدمة مثل تحليل المحتوى الرقمي، الدراسة النصية الموسعة، أو الاستفادة من أدوات برمجية متخصصة لتحليل أنماط البيانات الضخم (Kozinets, 2015, p. 103). على صعيد آخر، تطفو تحديات أخلاقية معقدة إلى السطح في مجال الإثنوغرافيا الرقمية. ففي ظل طبيعة الفضاء الرقمي الذي تمل فيه الهويات إلى الغموض والتشويه، يجد الباحثون صعوبة متزايدة في التأكد من أن الأفراد المشاركين في البحث قد قدموا موافقة صريحة وواضحة على المشاركة. غالبًا ما تكون تفاعلات الأفراد عبر الإنترنت تلقائية وغير مدروسة ضمن سياقها البحثي المحدد، مما يؤدي إلى ظهور تساؤلات أخلاقية حول انتهاك خصوصيتهم أو استغلال حقوقهم الشخصية بدون قصد. ظهرت أيضًا قضايا مستجدة تتعلق بحماية هوية الأفراد المشاركين في بيئات رقمية عامة قد تكون مفتوحة للجمهور بشكل كامل. هذا التعقيد يعزز الحاجة إلى إعادة النظر في معايير البحث الأخلاقي وتكييفها لتتواءم مع ديناميكيات العصر الرقمي المتغيرة. (Markham, 2017, p. 32) يُظهر هذا الواقع أنه بينما توفر الإثنوغرافيا الرقمية إمكانيات غير مسبوقة لفهم العوالم الافتراضية والرقمية، فإنها تتطلب من الباحثين اتخاذ نهج أكثر ديناميكية وابتداعًا لمواجهة تحدياتها المتنوعة، سواء كانت منهجية أو أخلاقية، بهدف تحقيق فهم شمولي وعميق للظواهر الاجتماعية الحديثة في عصر التكنولوجيا المتسارعة.

أما على المستوى المنهجي، تفرض الإثنوغرافيا الرقمية على الباحثين ضرورة تطوير منظومة من الأدوات والأساليب المبتكرة لتحليل البيانات، نظرًا للخصوصيات التي يتميز بها البحث في البيئات الرقمية. يتسم هذا السياق بتعدد وتنوع أنواع البيانات المتوفرة، مثل النصوص والصور ومقاطع الفيديو، وهو ما يعقد عملية دمجها وتحليلها بالاعتماد على الأساليب التقليدية. لذلك، غالبًا ما تستدعي دراسة هذه البيانات توظيف أدوات تحليل متقدمة تجمع بين المنهجيات الكمية والنوعية، بجانب توظيف تقنيات معالجة البيانات الضخمة. إضافة إلى ذلك، يخلق الطابع المتسارع والمتغير باستمرار للفضاءات الرقمية تحديات للمباحث الإثنوغرافية، حيث يصبح من الصعب إتمام الدراسات ضمن إطار زمني ملائم (Booth, 2016, p. 75) ومن بين التحديات الأخرى الناجمة عن الرقمنة، تبرز القضايا الأنطولوجية المتعلقة بمفهوم "الوجود" في الفضاءات الرقمية. إذ تسمح هذه الفضاءات للمستخدمين بإنشاء هويات متعددة وقابلة للتغيير، الأمر الذي يثير تساؤلات جوهرية حول طبيعة "الوجود" ذاته. تتسم الهوية الرقمية باختلافات جوهرية عن الهوية المادية، إذ غالبًا ما تكون غير ثابتة أو تتألف من مزيج من الهويات المتعددة على منصات رقمية مختلفة. يؤدي هذا إلى ضرورة إعادة تقييم الإثنوغرافيا لمفاهيم محورية كـ "الهوية"، و "الوجود"، و "الواقعية" في إطار دراسة المجتمعات الرقمية (Paccagnella, 2017, p. 267) فضلاً عن ذلك، يطرح

الطابع غير المادي للتفاعل الاجتماعي في هذه الفضاءات^{الإثنوغرافية} تحديات إضافية في تفسير سلوك الأفراد ودوافعهم ضمن بيئة لا تخضع لقواعد التقليدية للحضور المادي.

في خاتمة القول، يتعين على الإثنوغرافيا الرقمية التصدي للتحديات التقنية المرتبطة باستخدام الأدوات الرقمية في سياق البحث العلمي . يواجه الباحثون ضرورة الإلمام بمنصات رقمية متعددة والتعامل مع برامج مخصصة لجمع البيانات وتحليلها، وهو ما يتطلب امتلاك مهارات تقنية قد تكون خارجة عن نطاق التخصصات الأنثروبولوجية التقليدية .بالإضافة إلى ذلك، يتسم التطور السريع في مجال التكنولوجيا بصعوبة مواكبة الباحثين لأحدث الأدوات والأساليب الضرورية لتنفيذ دراسات دقيقة ومواكبة للمستجدات (Malbon, 2017, p.45) وفي ضوء تلك التحديات، تبرز أيضاً إشكاليات تتعلق بالتنوع الثقافي واللغوي الذي يميز الفضاء الرقمي، حيث يعكس هذا الفضاء بيئة تتسم بتعددية ثقافية ولغوية واسعة .يتطلب هذا الواقع استخدام أدوات تحليل تتميز بالمرونة والقدرة على التعامل مع هذا التنوع المعقد .وينبغي على الباحثين إدماج السياقات الثقافية واللغوية الخاصة بالمشاركين في أبحاثهم، وهي مهمة تعتمد على فهم عميق للعوامل الثقافية الأساسية التي تؤثر على أنماط السلوك في البيئات الرقمية (Langer, 2013, p. 89)

3. الفضاءات الرقمية كموضوع للدراسة الإثنوغرافية

تمثل الفضاءات الرقمية، بما في ذلك المنصات الاجتماعية، الألعاب الإلكترونية، والعوالم الافتراضية، بيئات معقدة لدراسة الإثنوغرافيا في العصر الرقمي. مع التزايد المستمر لاستخدام الإنترنت في شتى مناحي الحياة اليومية، باتت هذه الفضاءات مجتمعات نابضة تعكس بوضوح التفاعلات الاجتماعية المعاصرة. في عالم يشهد طفرة في إنتاج البيانات وحركة غير مسبقة للأفراد عبر الشبكات، يؤكد ميشيل بوشي أن الفضاءات الرقمية تفتح آفاقاً جديدة لفهم التفاعلات الثقافية والهوية الجماعية، وهي الجوانب التي قد يصعب تتبعها في السياقات المادية. (Bussi, 2023, p. 75).

من بين أبرز التحديات التي تواجه الباحثين في هذه البيئة، نجد مسألة فهم الهوية الرقمية التي تتميز بتعددتها وقدرتها على التحول المستمر. بخلاف الهوية التقليدية المرتبطة بخصائص مكانية وزمانية ثابتة في العالم المادي، يتمتع الأفراد في الفضاء الرقمي بإمكانية إعادة تشكيل ذواتهم باستمرار. في هذا الإطار، تشير ماريا فيلا، من خلال دراستها عن الهوية الرقمية، إلى أن هذه الفضاءات تتيح مجاًلاً لاستكشاف وتبادل هويات غير محدودة، مما يجعل تحليل مفهوم "الوجود الاجتماعي" أكثر تعقيداً. (Vila, 2022, p. 43) أما في السياق العربي، فيرى د. عبد الله الزهراني أن للهوية الرقمية في العالم العربي خصوصية فريدة تنبع من التفاعلات الثقافية المتنوعة التي تبرز داخل هذه الفضاءات. (الزهراني، 2023، ص. 120).

يشير جاري ليونارد إلى أن التنقل بين الزمن والمكان في الفضاءات الرقمية يسهم في إعادة تشكيل مفهوم المجتمع. فالزمن الرقمي يتميز بالمرونة، حيث يصبح بإمكان الأفراد التفاعل في أوقات وأماكن غير محددة. ويتفق جون توماس مع هذا الطرح، لافتاً إلى أن الفضاءات الرقمية تتيح فرصاً للمشاركة الجماعية سواء كانت متزامنة أو غير متزامنة، مما يخلق شكلاً من "الزمن المشترك" الذي يصعب تحليله باستخدام المناهج الإثنوغرافية التقليدية. كما يضيف توماس أن هذا الزمن المشترك يتقاطع مع الزمن الشخصي للأفراد، مما يقدم للباحثين تحديات جديدة في تفسير سلوك المستخدمين داخل هذه الفضاءات (Leonard, 2021, p. 88). على صعيد التحديات الأخلاقية، تطرح الإثنوغرافيا الرقمية العديد من القضايا المتعلقة بالخصوصية والموافقة. فالخصوصية ضمن الفضاءات الرقمية قد تبدو مبهمه، حيث تتداخل البيانات الشخصية مع العامة. يبين ريتشارد سميت في دراسته أن هذا الواقع يستدعي من الباحثين اعتماد آليات

مبتكرة لضمان حصولهم على موافقة الأفراد للمشاركة في الأبحاث، (Smith, 2023, p. 56). خاصةً في بيئات رقمية تفتقر إلى نظم رقابية واضحة. أما في السياق العربي، يشير د. عبد الله الزهراني إلى أن طبيعة التفاعل في الفضاءات الرقمية تتباين بناءً على السياقات الثقافية المختلفة، مما يزيد من تعقيد المهمة بالنسبة للباحثين العرب، حيث يتعين عليهم مواجهة تحديات إضافية تتعلق بحماية خصوصية الأفراد وفهم سلوكهم داخل هذه البيئات الرقمية. (الزهراني، 2023، ص. 120).

من الناحية التقنية، تُعتبر البيانات الضخمة الناتجة عن الفضاءات الرقمية إحدى أكبر التحديات الحالية. ويتطلب التعامل مع هذه البيانات استخدام أدوات وتقنيات تحليلية متقدمة. في هذا السياق، يُبرز محمد الهاشمي حاجة الباحثين لاكتساب مهارات متقدمة في تحليل البيانات الضخمة لفهم الديناميكيات الاجتماعية المعقدة التي تظهر في هذا النوع من الفضاءات (الهاشمي، 2022، ص. 71). كما يشدد على أهمية تطوير أدوات برمجية متخصصة تتيح تحليل البيانات الرقمية بدقة وأخلاقيات عالية. في النهاية، يمكن اعتبار الإثنوغرافيا الرقمية مجالًا غنيًا يقدم فرصة للتفكير النقدي حول كيفية تأثير الفضاءات الرقمية على تشكيل الهويات الفردية والجماعية. ومن خلال دراسة وفهم التفاعلات التي تحدث ضمن هذه الفضاءات، يصبح بإمكان الباحثين إعادة النظر في الطريقة التي تُبنى بها المجتمعات والعلاقات الاجتماعية في العصر الرقمي. إضافة إلى ذلك، توفر الفضاءات الرقمية إمكانيات قيمة لدراسة التداخل بين التأثيرات الثقافية والتكنولوجية على التفاعلات البشرية في عصر الإنترنت.

4. مفاهيم ومنهجيات جديدة في الإثنوغرافيا الرقمية

تشهد الإثنوغرافيا الرقمية تحديات جوهرية في ظل توسع الفضاءات الرقمية، ما يستلزم إعادة تقييم المفاهيم والمنهجيات السائدة. ومع الانتشار المتزايد لهذه الفضاءات، بدأت الإثنوغرافيا في تبني مفاهيم وأدوات بحثية مبتكرة، بما في ذلك اعتماد البيانات الضخمة وتقنيات التحليل الشبكي. تتميز هذه الأدوات بمناهجها التي تختلف بصورة عميقة عن الممارسات التقليدية، مما يتطلب تطوير أساليب جديدة لفهم الظواهر الرقمية وتحليلها بفعالية.

ومع ظهور الفضاءات الرقمية والعوالم الافتراضية، تغيرت هذه المعايير بشكل جذري. فالفضاءات الرقمية التي أصبحت جزءًا أساسيًا من حياة الأفراد تمثل عالماً غير مادي، حيث يمكن أن تتداخل الزمان والمكان، ويصبح التواصل بين الأفراد عالميًا، غير مرتقن بمحدود مكانية أو ثقافية. في هذا السياق، لم يعد من الممكن الاعتماد على مفهوم "الميدان" بالمعنى التقليدي. بل أصبح يتطلب التفكير في الميدان الرقمي الذي يمكن أن يكون متنوعاً وغير ثابت، وقد لا يمتلك حدوداً جغرافية واضحة.

4.1. الفضاء المرقمن وبروز ميدان جديد:

تمثل الفضاءات الرقمية ميداناً جديداً غنياً ومتطوراً يشمل مجموعة متنوعة من المنصات المتوفرة داخل فضاء الإنترنت. حيث يتضمن هذا الميدان وسائل التواصل الاجتماعي كالفيسبوك وتويتر، والمنشآت التي تتيح النقاشات التفاعلية بين المستخدمين، بالإضافة إلى الألعاب الإلكترونية التي تجمع آلاف الأفراد في عوالم افتراضية، فضلاً عن الأنظمة الرقمية المفتوحة التي تُساهم في توفير بيئات متجددة للتفاعل الرقمي. هذه الفضاءات تُبرز أسلوباً جديداً في التواصل، حيث يتم التفاعل بين الأفراد عبر واجهات رقمية وشاشات إلكترونية، مما يُضفي طابعاً مائعاً وغير محدد مادياً على هذه البيئات. كما أوضح الباحثون مثل جوثان هاريس، فهذه الفضاءات تعتبر "سياقات

متعددة الأبعاد"، تتسم بقدرتها على التغيير المستمر والتجدد مع كل تفاعل يحدث فيها سواء كان فردياً أو جماعياً. (Harris, 2022, p 92) هذا الواقع الديناميكي يفرض تحديات خاصة على الإثنوغرافيين، الذين يتوجب عليهم إعادة تقييم منهجياتهم لفهم المشاركة البشرية ضمن هذه الميادين الافتراضية المبتكرة. إن الطابع المتحول لهذه الفضاءات يجعل دراسة طبيعتها وتفاعلاتها عملية غير سهلة، ولكنها تفتح مجالات جديدة في البحث العلمي لفهم تأثير التكنولوجيا الحديثة على التواصل الإنساني.

وضمن سياق الممارسة التقليدية للإثنوغرافيا، يستوجب حضور الباحث بشكل مادي في موقع الدراسة، مما يعني مشاركة مباشرة وميدانية مع المجتمعات التي يتم دراستها. ومع ذلك، ومع تطور التكنولوجيا وظهور الفضاءات الرقمية، أصبح من الممكن للباحثين الانخراط مع هذه المجتمعات عبر وسائل تواصل غير مادية تمامًا. هذا التحول لا يقتصر فقط على تقليل الحاجة إلى الحضور الجسدي، بل يعيد تشكيل الأساليب التي تُجمع بها البيانات وتُحلل، مما يفتح أفقاً جديداً للدراسات العلمية. إن العديد من المنصات والمجتمعات الرقمية تتيح اليوم للباحثين فرصة المشاركة في بيانات تفاعلية ومليئة بالحياة، ولكن عن بعد، مما يكسر الحدود التقليدية للمساحات الزمنية والجغرافية. في هذا السياق، يعرض الزهراني في دراسته التي تتناول المجتمعات الرقمية في العالم العربي منظورا مميّزا حول هذه التحولات. فهو يرى أن تلك الفضاءات الرقمية تمتلك القدرة على إعادة تعريف الطريقة التي نفهم بها تشكيل الهويات الثقافية والاجتماعية للأفراد. فهي لم تعد تشترط على الباحث أن يكون موجودا فعلياً في المكان نفسه مع المجتمع الذي يتناوله بالدراسة. بل تقدم إمكانيات متقدمة تتيح مراقبة وتحليل التفاعلات الاجتماعية والثقافية عن بُعد وبشكل رقمي بحت. هذه التحولات ليست مجرد تغيير في أدوات البحث، وإنما تعكس مدى عمق الثورة التي أحدثتها الرقمنة في المفاهيم والمنهجيات الأكاديمية. كما يُشير الزهراني في أحد تحليلاته الحديثة، إلى أن هذه الفضاءات تمثل نقطة تحول استثنائية في فهم ديناميكيات المجتمعات الحديثة وتفاعلها مع التكنولوجيا. (الزهراني، 2023، ص. 115)

4.2. الانتقال من المكان إلى فضاء الزمان الرقمي:

"إن التحول محوري الذي طرحته الإثنوغرافيا الرقمية، يتمثل في عدم ضرورة أن يتواجد الباحث بنفس المكان أو الزمان للتعلم في دراسة التفاعلات الاجتماعية. بدلا من ذلك، يركز الباحثون على الفضاءات الزمنية التي تتكون رقمياً، حيث تكون العديد من التفاعلات غير متزامنة. بمعنى آخر، قد يتفاعل الأفراد في أوقات متباعدة ومن أماكن متباعدة. وكما تشير سوزان بينيت، هذا النمط من التفاعل غير المتزامن يتطلب إعادة النظر في مفهوم الزمن ضمن الدراسات البحثية، حيث لا تحدث التفاعلات في لحظة واحدة متصلة. بل تصبح إمكانية العودة إلى تلك المحادثات والأحداث وقتما يشاء الباحث وسيلة لإعادة تشكيل الذاكرة الاجتماعية داخل الفضاء الرقمي (Bennett, 2021, p. 108).

هذه التفاعلات المنقسمة، سواء جاءت على هيئة نصوص أو مواد مرئية، تعيد تعريف دور الفضاء الزماني كجزء أساسي من الميدان الإثنوغرافي، مما يفرض على الباحث مواجهته بطرق متجددة. بهذا الشكل، يكتسب الزمن دوراً محورياً في استكشاف المجتمعات الرقمية، حيث تتحول اللحظات الرقمية إلى مجموعة من البيانات القابلة للمراجعة والتحليل في أي وقت لاحق.

4.3. من البعيد إلى القريب: مشاركة الباحث في الفضاء الرقمي

يشير مفهوم مشاركة الباحث في الفضاء الرقمي إلى أحد التحولات الجوهرية التي أحدثتها الإثنوغرافيا الرقمية. ففي الدراسات التقليدية، اقتصر دور الباحث على الحضور كمراقب محايد ومتابعة مجريات الأحداث عن كثب. أما في السياق الرقمي، فإن التفاعل

والمشاركة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من عملية البحث .يستعين كثير من الباحثين في هذا المجال بمنهجيات تشاركية، حيث يندمجون فعلياً كأعضاء في المجتمعات الرقمية. على سبيل المثال، عند دراسة المجتمعات الافتراضية أو الألعاب الإلكترونية، قد يتطلب الأمر أن يصبح الباحث لاعباً نشطاً داخل اللعبة أو أن يشارك باستمرار مع المستخدمين ضمن المنصات الاجتماعية. في هذا السياق، يشير د. عبد الله الزهراني في بحثه حول المجتمعات الرقمية في العالم العربي إلى التحديات الأخلاقية التي قد تواجه الباحثين في هذه المساحات، مثل السعي للحفاظ على الحياد وضمان خصوصية الأفراد أثناء التفاعل المباشر (الزهراني، 2023، ص. 118)

يمكن القول إن طبيعة مشاركة الباحث داخل الفضاء الرقمي تختلف عن الدور التقليدي للمراقب في الأنثروبولوجيا التقليدية، مما يستدعي تكيفاً مع السياقات الجديدة وأساليب العمل الرقمية.

5- التعددية الهوياتية داخل الفضاء المرقم:

الميدان الرقمي يعد فضاء غنيا بالتنوع والتعددية، حيث تتداخل فيه مجموعة كبيرة من الهويات التي تظهر وتتحول باستمرار. يمثل هذا الفضاء بيئة ديناميكية لا تعترف بالثبات أو الحدود الجامدة؛ فالأفراد الذين ينشطون في العالم الرقمي لا يلتزمون بوجود دائم أو محدد ضمن مجتمع واحد أو منصة واحدة. بل هم يعيشون حالة من الحراك المستمر بين هويات رقمية متعددة، تنتج عن تنقلهم بين سياقات اجتماعية تختلف باختلاف المنصات الرقمية وظروف استخدامها. تلك الهويات ليست كيانات ثابتة، بل هي نتيجة تفاعل مستمر يتأثر بعدد كبير من العوامل، بما في ذلك القيم الثقافية، والوظائف التقنية للمنصات، والتوجهات الشخصية للمستخدمين. فكل منصة تُعيد تشكيل هوية المستخدم وفقاً لمواصفاتها الخاصة، مما يعزز التنوع ويثري التفاعل بين الأفراد داخل هذه المساحات. وبالتالي، يصبح الميدان الرقمي بمثابة شبكة مترابطة ومعقدة من التجارب والخبرات التي يصعب انحصارها في إطار واحد أو تصنيفها بسهولة. على الباحث الذي يطمح إلى فهم دوافع وسلوكيات الأفراد وتأثير التفاعلات في هذه الفضاءات الرقمية، أن يدرك عمق وتركيب هذا التداخل. فالتفاعلات الاجتماعية لا تتم بصورة خطية أو واضحة المعالم، بل هي عبارة عن شبكة متشابكة ومعقدة من المسارات التي تتحرك بين المنصات والمجتمعات الرقمية المختلفة. وهذا يتطلب قدرة على تحليل التفاصيل الدقيقة واستيعاب التغيرات المتسارعة التي تميز تلك الحياة الرقمية المتعددة الأوجه.

6. مسرحية الممارسة الإثنوغرافيا داخل الفضاء الرقمي :

إن إعادة صياغة فهم الميدان الإثنوغرافي ضمن الفضاءات الرقمية تقتضي تغييرات جوهرية في الطريقة التي يدرك بها الباحث المجتمعات قيد الدراسة. أصبح الميدان يتجاوز حدود الأماكن المحددة أو التفاعلات الفورية ليشمل أيضاً التفاعلات غير المتزامنة داخل فضاءات ديناميكية تزخر بالمعلومات. لذلك، بات من الضروري تبني أدوات حديثة في الإثنوغرافيا الرقمية لتوثيق هذه التفاعلات وتحليلها، بما في ذلك تقنيات التحليل الشبكي واستخدام البيانات الضخمة. كذلك، يتعين على الباحثين تطوير أساليب مبتكرة للتفاعل والمشاركة مع المجتمعات الرقمية، مع الحفاظ على الموضوعية وتجنب التحيز.

6.1 التوثيق والتسجيل ومحاولة التأسيس الإثنوغرافي

تشكل منهجيات التوثيق والتسجيل ركيزة أساسية في عملية البحث الإثنوغرافي، إذ شهدت تطوراً ملحوظاً بالتزامن مع التحولات التي أحدثتها الفضاءات الرقمية. ففي الأنثروبولوجيا التقليدية، كان الاعتماد الأساسي في التوثيق يتركز على الملاحظات الميدانية المكتوبة يدوياً. ومع ذلك، ومع ظهور المجال الرقمي، أصبح من الضروري تبني أدوات حديثة لتسجيل وتحليل البيانات الرقمية. تشمل هذه الأدوات مجموعة متنوعة من الوسائط، مثل النصوص والصور والتسجيلات الصوتية، إلى جانب إدماج تقنيات متقدمة لتحليل البيانات الضخمة والشبكات. وقد أسهم ذلك في تمكين الباحثين من توثيق وتحليل أنماط التفاعلات الرقمية التي تجرى عبر المنصات المختلفة بشكل أكثر شمولية ودقة.

6.2. التوثيق النصي واستشكال الممارسة الإثنوغرافية:

التوثيق النصي في البيئات الرقمية يمثل أحد أبرز الأدوات المعتمد عليها من قبل الباحثين في مجال الإثنوغرافيا الرقمية. في هذه البيئات، يتجلى التوثيق النصي في جمع وتحليل مختلف أشكال النصوص، مثل المحادثات والرسائل والتعليقات والمشاركات على مواقع التواصل الاجتماعي أو المنتديات أو المدونات الإلكترونية. تُستخدَم هذه البيانات لفهم الديناميكيات الاجتماعية والثقافية داخل المجتمعات الرقمية. وفقاً لتحليل أنيتا ليرمان، يُعد التوثيق النصي الوسيلة الأكثر شيوعاً لدراسة الفضاءات الرقمية، نظراً لما يوفره من إمكانيات لتحليل المحتوى عبر فترات زمنية ممتدة. تستند هذه المنهجية إلى تسجيل البيانات الأولية ومن ثم تحليلها في سياقات متنوعة، مع مراعاة الأبعاد الثقافية التي يؤثر فيها التفاعل. (Liberman, 2023, p. 76) ومن بين الأمثلة العملية على ذلك، دراسة النصوص المنشورة على منصات مثل فيسبوك وتويتر، حيث تجمع التفاعلات بناءً على الأنماط اللغوية والمضامين السائدة. وفي السياق العربي، يتطرق د. عبد الله الزهراني إلى أهمية التوثيق النصي في المجتمعات الرقمية العربية، معتبراً أنه أداة فعالة لفهم التوجهات الاجتماعية والسياسية. ويبرز هذا النهج كيف تعكس هذه البيئات الرقمية طبيعة تفاعل الأفراد مع الأحداث السياسية والثقافية، مما يساهم في تقديم صورة أكثر شمولية للمجتمع الرقمي العربي (الزهراني، 2023، ص. 115).

6.3. التوثيق البصري وتشظي الظواهر الرقمية داخله :

التوثيق البصري والسمعي يمثل جزءاً محورياً من أدوات البحث في العصر الرقمي، حيث يشمل استخدام الوسائط المرئية والمسموعة، مثل الفيديوها والصور المتداولة عبر المنصات الرقمية كيو تيوب، وإنستغرام، وتيك توك. يُعد هذا النوع من التوثيق وسيلة رئيسية لدراسة التصورات الذهنية للأفراد والجماعات في سياقات الفضاء الرقمي. كما يساهم في تحليل وفهم كيفية تفاعل الأفراد مع محتويات رقمية معينة، ودورها في بناء الهويات الثقافية لهذه الجماعات. بحسب ما أوضحته الباحثة سوزان بينيت، يُعتبر التوثيق البصري والسمعي أداة حيوية تمكن الباحثين من تسجيل وتحليل لحظات تفاعل محورية في الفضاء الرقمي. إذ يُتيح هذا النوع من الوسائط إمكانية استكشاف الأنماط غير اللفظية للتواصل التي تحدث بين الأفراد ضمن هذه البيئات الافتراضية. ويفتح بذلك المجال أمام دراسة التأثير الجوهري للصور والأصوات في بناء الهويات الجماعية والثقافية وتحليل ديناميكياتها. (Bennett, 2021, p. 108)

وعلى مستوى الدراسات حول الفضاء الرقمي العربي، يُبرز الدكتور محمد الهاشمي أهمية التوثيق البصري والسمعي في تحليل التفاعلات الثقافية في المجتمعات العربية من خلال المنصات الرقمية. فعلى سبيل المثال، تُعد منصات مثل يوتيوب وسناب شات مساحات أساسية للتعبير عن القضايا الاجتماعية والسياسية والرؤى الثقافية السائدة. ومن هذا المنطلق، يُساهم التوثيق البصري بشكل كبير في تفكيك هذه التفاعلات وفهم طبيعة الخطاب الرقمي العربي وتحولاته الثقافية.

6.4. التوثيق الشبكي ومحاولة تفكيك فضاءاته

أصبحت البيانات الضخمة أداة فعالة في مجال الإثنوغرافيا الرقمية، حيث يعتمد الباحثون على تحليل كميات هائلة من البيانات المستمدة من الأنشطة الرقمية. ويُعد التحليل الشبكي وسيلة رئيسية لفهم طبيعة العلاقات بين الأفراد ضمن الفضاءات الرقمية، من خلال البيانات الوصفية التي تكشف كيفية تفاعل الأشخاص مع بعضهم البعض عبر منصات التواصل الاجتماعي. بحسب جوناثان هاريس، تُتيح تقنية البيانات الضخمة للباحثين دراسة أنماط السلوك وتأثيرها عبر المنصات الرقمية المختلفة مثل فيسبوك وتويتر. ومن خلال أدوات تحليل البيانات، يمكن قياس مدى التأثير الاجتماعي للمحتوى المتداول ضمن هذه الفضاءات. بالإضافة إلى ذلك، يُمكن التحليل الشبكي للباحثين من استيعاب العلاقات القائمة بين الأفراد أو المجموعات في الشبكات الاجتماعية بطريقة مفصلة ودقيقة (Harris, 2022, p. 92) أما في السياق العربي، يشير د. عماد بن عبد الله إلى أن استخدام البيانات الضخمة في دراسة الفضاءات الرقمية العربية يمثل أداة أساسية لفهم اتجاهات الرأي العام وتحليل الخطاب السياسي المنتشر في العالم الرقمي. وتوضح الدراسات الحديثة كيف يمكن الاستفادة من الخوارزميات والذكاء الاصطناعي لتحليل تفاعلات المستخدمين على شبكات التواصل الاجتماعي بدرجة عالية من الدقة (عبد الله، 2023، ص. 63).

6.5. التفاعل التشاركي ومسألة التوثيق

تعد المنهجيات التفاعلية من أبرز الأساليب الحديثة التي تقوم على إشراك الباحث بطريقة مباشرة ضمن الفضاء الرقمي. يستخدم الباحثون هذا النهج لتعزيز تفاعلهم مع المجتمع المدروس، مما يتيح لهم متابعة التفاعلات بقدر أعلى من الدقة والعمق في الفهم. وفي هذا السياق، يدمج الباحثون تجاربهم الذاتية في عملية التوثيق، حيث يشاركون عن قرب في الأنشطة الرقمية سواء كان ذلك عبر خوض تجربة اللعب في العوالم الافتراضية أو التفاعل المباشر مع المستخدمين على منصات التواصل الاجتماعي. وفقًا لبلي وكريساب، يُعتبر التوثيق التفاعلي ضمن الفضاءات الرقمية امتدادًا لمنهجيات الأنثروبولوجيا التشاركية، حيث يصبح الباحث جزءًا لا يتجزأ من المجتمع الرقمي ويجمع البيانات عبر تفاعلات مباشرة مع الأفراد (Blee & Creasap, 2021, p. 58). هذه الطريقة ترفع من مستوى دقة البيانات نظرًا لأنها تمكن الباحثين من معايشة التجربة الاجتماعية دون انفصال، مما يمنحهم رؤية أعمق وأكثر شمولية.

إذن تمثل منهجيات التوثيق والتسجيل في الإثنوغرافيا الرقمية عنصرًا أساسيًا لفهم الديناميكيات المتغيرة للمجتمعات في الفضاءات الرقمية الحديثة. مع التطورات المتسارعة في التكنولوجيا ونشوء بيئات رقمية متعددة الأبعاد، بات من الضروري للباحثين تبني مجموعة متنوعة من الأدوات والمنهجيات التوثيقية التي تشمل النصوص المرصودة، والمشاهد البصرية، والتسجيلات السمعية، جنبًا إلى جنب مع توظيف تقنيات البيانات الضخمة وتحليل الشبكات. يساهم هذا التوسع المنهجي في تمكين الباحثين من استيعاب التفاعلات الرقمية بقدر أكبر من الدقة والشمولية، مما يبرز تحولات جوهرية في الطرق الأكاديمية لفهم الفضاءات الرقمية وتأثيراتها على المجتمعات الحديثة.

6.6. العوالم الافتراضية كفضاء للممارسة الإثنوغرافية:

إلى جانب الألعاب الإلكترونية، تبرز العوالم الافتراضية كمجالات ثلاثية الأبعاد مبتكرة تتيح للأفراد التفاعل داخل فضاءات متخيلة، مما يجعلها بيئات منفصلة تتطلب من الباحثين تطوير استراتيجيات توثيق مختلفة تعكس طبيعتها الفريدة. في هذه السياقات، تُبنى هويات الأفراد ضمن هذه البيئات استنادًا إلى التفاعلات الاجتماعية التي تحدث بداخلها. تُعد العوالم الافتراضية، مثل "Second Life" و "Minecraft"، ميدانًا زاخرًا للبحث الإثنوغرافي لما تتيحه من فرص لدراسة التفاعلات الجماعية والأنشطة الاقتصادية، فضلًا عن الأنماط الثقافية المعقدة التي تطفو على السطح في مثل هذه البيئات. يتمكن المستخدمون في هذه العوالم من تصميم شخصيات رقمية

تمثلهم، والانخراط في أنشطة اجتماعية تحاكي الواقع ^{الإثنوغرافية} المادي بصورة لافتة. وفقاً لدراسة سوزان بينيت، تعتبر العوالم الافتراضية نموذجاً مثالياً لفهم عمليات بناء الهوية الرقمية داخل الأطر الاجتماعية الجديدة. ففي هذه السياقات، يعتمد الأفراد على التفاعل اللفظي والبصري لتطوير علاقاتهم ضمن بيئة تتمتع بدرجة عالية من المرونة. (Bennett, 2021, p. 142).

ومن هذا المنطلق، تبرز التفاعلات التي تحدث ضمن هذه الفضاءات أنماطاً جديدة في بناء الهوية الجماعية وطريقة تقديم الذات، مما يعكس بدوره التأثيرات الثقافية والتكنولوجية في إعادة تشكيل العلاقات الإنسانية. وفي السياق العربي، تشير د. فاطمة العتيبي في دراستها عن العوالم الافتراضية بدول المنطقة إلى أن هذه البيئات تمثل وسيلة فعالة لتوسيع الأفق الثقافي للأفراد. إذ توفر هذه الفضاءات منصة للتعبير عن الذات بعيداً عن القيود الاجتماعية والجغرافية التقليدية. وتوضح العتيبي أن هذه البيئات تسهم في تكوين مجتمعات رقمية جديدة تتسم بانفتاحها على التجارب الثقافية المتنوعة بشكل غير مسبوق (العتيبي، 2023، ص. 98).

7. إعادة تشكيل الإثنوغرافيا

تشهد الإثنوغرافيا اليوم تحديات جوهرية نابعة من التحولات المعرفية والتكنولوجية السريعة التي يعيشها العالم، ولا سيما في ظل بروز الفضاءات الرقمية والواقع الافتراضي. هذه التحولات فرضت ضرورة إعادة النظر في المنهجيات الإثنوغرافية الكلاسيكية وإعادة تصميمها لتتلاءم مع بيئات جديدة تختلف جذرياً عن مفهوم "المعيشة عن قرب"، الذي كان أحد الأعمدة الأساسية للنهج الإثنوغرافي التقليدي. في هذا السياق، تثار تساؤلات مهمة في الدراسات المعاصرة حول مدى قدرة الإثنوغرافيا على استيعاب هذه الفضاءات الرقمية، وما إذا كان بالإمكان تطوير الأساليب والأدوات البحثية المستخدمة بحيث تواكب هذه التغيرات وتظل قادرة على إنتاج معرفة غنية ودقيقة.

➤ إعادة التفكير في الإثنوغرافيا الرقمية:

الإثنوغرافيا الرقمية تُعد منهجية بحثية تستند إلى توظيف تقنيات وأساليب الإثنوغرافيا لدراسة البيئات الافتراضية والتفاعلات الاجتماعية التي تتم عبر الإنترنت. ومع التطور التكنولوجي وتزايد الاعتماد على الأدوات الرقمية في البحث، بات من الضروري إعادة صياغة تعريف هذا الحقل ليتماشى مع التحولات المتسارعة في العالم الرقمي. في حين كانت الإثنوغرافيا التقليدية تعتمد على وجود الباحث فعلياً داخل البيئة الاجتماعية مدار البحث لمعايشتها بشكل مباشر، فإن البحث في الفضاءات الرقمية يقدم أنماط تفاعل جديدة عبر منصات مثل المنتديات الإلكترونية، الألعاب عبر الإنترنت، وتقنيات الواقع الافتراضي. تشير إيلين جاكوبس إلى أن هذا التحول إلى السياق الرقمي أعاد تشكيل العلاقة بين الباحث والمجتمع الذي يدرسه، حيث أصبحت الملاحظات غير المتداخلة والتفاعلات النشطة من بين الأدوات الأساسية في عملية البحث الرقمي. (Jacobs, 2022, p. 89) إلا أن هذا الانتقال لا يقتصر فقط على البعد التقني، بل يدعو الباحثين إلى إعادة النظر في الأسئلة الأنثروبولوجية التقليدية لتتمكن من استيعاب الديناميكيات الاجتماعية والظواهر الناشئة داخل هذه الفضاءات الجديدة.

➤ منهجيات جديدة للتفاعل مع الفضاءات الرقمية

للتكيف مع الفضاءات الرقمية، يجب على الباحثين اعتماد منهجيات جديدة تركز على التفاعل الرقمي بدلاً من الملاحظة التقليدية. وفقاً ل. بيتر ستراوس، فإن المنهج الإثنوغرافي الرقمي لا يعتمد فقط على الملاحظة التي تحدث في الوقت الحقيقي، بل يشمل أيضاً تحليل البيانات الرقمية التي يمكن أن تعكس التفاعلات الاجتماعية التي لا يمكن ملاحظتها بسهولة في الحياة الواقعية، مثل المحادثات النصية و المحتوى الذي يتم نشره على منصات الإنترنت. (Strauss, 2023, p. 157).

واحدة من هذه المنهجيات هي المشاركة الرقمية الفاعلة، حيث يمكن للباحث أن يصبح جزءا من المجتمع الرقمي من خلال اللعب في الألعاب الإلكترونية أو المشاركة في المنتديات الرقمية. من خلال هذه المشاركة، يمكن للباحث أن يراقب الأنماط الثقافية والهويات الرقمية التي تتشكل داخل هذه الفضاءات. في هذا السياق، **ماركوس تيرين** في دراسته حول الأنثروبولوجيا الرقمية في 2022 يرى أن المشاركة الفاعلة تتيح للباحث التعرف على الممارسات الثقافية التي تتفاعل مع الهوية الرقمية للأفراد في بيئة افتراضية. ومن خلال التفاعل، يمكن للباحث جمع بيانات أكثر دقة حول كيفية تكوين الهوية الجماعية في الألعاب أو في العوالم الافتراضية. (Teren, 2022, p. 45)

➤ التحولات الثقافية في الفضاءات الرقمية

إن الفضاءات الرقمية، مثل المنتديات الإلكترونية و العوالم الافتراضية و الألعاب الإلكترونية، هي بيئات غنية بالديناميكيات الثقافية التي تحتاج إلى فحص دقيق. التحولات الثقافية التي تحدث في هذه الفضاءات تُعتبر من أبرز مجالات البحث في الإثنوغرافيا الرقمية، حيث يصبح من الممكن دراسة كيف يُعيد الأفراد تعريف أنفسهم عبر الهوية الرقمية، وكيف يُعاد تشكيل الذاكرة الثقافية في ظل هذه التحولات. وفقاً لدراسة حديثة قام بها **جوناثان هاريس**، فإن الفضاءات الرقمية أصبحت تمثل "مجتمعات جديدة" حيث لا تقتصر الهوية على الحدود الجغرافية، بل تتشكل بناء على المشاركة الاجتماعية والتفاعل الرقمي. لذلك، تتغير الأنماط الثقافية بشكل مستمر مع تطور الأدوات الرقمية، وهو ما يتطلب منهجيات مرنة تستطيع التكيف مع هذه التحولات بشكل مستمر. (Harris, 2023, p. 110)

8. التحديات والمخاطر في إعادة تشكيل الإثنوغرافيا

رغم التطور الكبير في تطبيقات الإثنوغرافيا الرقمية، إلا أن هناك العديد من التحديات التي تواجه الباحثين. أولاً، يبقى الوجود المادي للباحث في البيئة الرقمية إشكالياً، حيث أن تفاعل الباحث مع المجتمع الرقمي قد يؤدي إلى تأثير على تصرفات الأفراد في الفضاء الرقمي. ثانياً، هناك مخاوف متعلقة بالخصوصية و الأخلاقيات، حيث يمكن أن يشعر المشاركون في الفضاءات الرقمية أن وجود الباحث يمثل انتهاكاً لخصوصياتهم.

كما يشير **عادل خليل** في دراسة حول الإثنوغرافيا الرقمية إلى أن التفاعل مع الأفراد في الفضاءات الرقمية قد يثير قضايا أخلاقية تتعلق بـ التمثيل و الخصوصية و الأمان الرقمي. (Khaleel, 2022, p. 74) لذلك، يجب على الباحثين في هذا المجال أن يكونوا على دراية بالتحديات الأخلاقية وأن يتخذوا التدابير المناسبة لضمان أمان البيانات وحماية الخصوصية.

➤ إعادة تشكيل الإثنوغرافيا في العصر الرقمي

إن إعادة تشكيل الإثنوغرافيا في العصر الرقمي تتطلب من الباحثين تطوير منهجيات بحثية جديدة تتماشى مع التغيرات الاجتماعية والثقافية الناتجة عن الفضاءات الرقمية. هذه المنهجيات يجب أن تركز على المشاركة الرقمية الفاعلة، الملاحظة الرقمية، وتحليل البيانات المتاحة على الإنترنت. علاوة على ذلك، يجب على الباحثين أخذ القضايا الأخلاقية بعين الاعتبار والالتزام بأعلى معايير الأمان في جمع البيانات. إن الإثنوغرافيا الرقمية تفتح آفاقاً جديدة لفهم التفاعلات البشرية في بيئات متعددة الأبعاد، مما يعزز من قدرة الأنثروبولوجيا على التكيف مع العصر الرقمي.

إن الإثنوغرافيا الرقمية تمثل تحولاً جوهرياً في طريقة دراسة التفاعلات الاجتماعية والظواهر الثقافية في عصر أصبح فيه الفضاء الرقمي جزءاً أساسياً من الحياة اليومية. فالتطور التكنولوجي السريع والتحول إلى الفضاءات الافتراضية يفرض تحديات جديدة على الباحثين، مما يستدعي إعادة النظر في المناهج الإثنوغرافية التقليدية التي كانت تعتمد بشكل أساسي على التواجد المادي والملاحظة المباشرة في المجتمعات التقليدية.

لقد أتاح الفضاء الرقمي للباحثين في مجال الأنثروبولوجيا الرقمية فرصة دراسة الهويات و التفاعلات الاجتماعية عبر منصات رقمية متطورة، لكن هذا التغيير يستدعي أيضاً التأمل العميق في أسئلة التأويل والفهم. كيف يمكن للباحث أن يفسر سلوك الأفراد الذين يتخذون هوية رقمية قد تكون غير مرتبطة بالواقع؟ وكيف يمكن إعادة تشكيل المنهجيات التقليدية التي كانت تستند إلى مفاهيم مثل "المشاركة المباشرة" و "الوجود المادي"؟.

إن التحديات التي تطرأ على التأويل الإثنوغرافي في الفضاء الرقمي، مثل صعوبة التفاعل غير المتزامن أو الهوية المجهولة للمشاركين، تستدعي من الباحثين تطوير أدوات تحليلية جديدة. يجب أن تكون هذه الأدوات مرنة وقادرة على فحص الظواهر الرقمية التي قد تكون غير قابلة للرصد بالطريقة التقليدية.

على الرغم من هذه التحديات، فإن الإثنوغرافيا الرقمية تقدم فرصة لإعادة صياغة مفهوم المجتمع و الهوية في ظل التحولات الثقافية والاجتماعية التي تحدث في الفضاءات الرقمية. فهي ليست مجرد إضافة تقنية على الإثنوغرافيا التقليدية، بل تمثل إعادة تصور لكيفية فهم التفاعل البشري في بيئات جديدة.

وفي الختام، يمكن القول إن إثنوغرافيا الفضاءات الرقمية، رغم تحدياتها، تعد خطوة مهمة نحو تطوير المنهجيات الأنثروبولوجية، وهي مدخل لفهم أعمق للمجتمعات الرقمية المعاصرة. ومع تطور التكنولوجيا وتغير الأنماط الثقافية، يبقى من الضروري على الباحثين في هذا المجال الاستمرار في إعادة النظر في المناهج التقليدية والبحث في أدوات جديدة تسمح لهم بمواكبة هذه التحولات وفهم أبعادها الثقافية والإنسانية.

- الإحالات والمراجع :

Books

- Blee, K. M., & Creasap, K. (2021). *Ethnographic Fieldwork in the Digital Age: Participatory Methods and New Technologies*. University of Chicago Press, p. 58.
- Jacobs, E. (2022). *Digital Ethnography and Virtu* Bennett, S. (2021). *Digital Interaction and the Future of Ethnography*. Cambridge University Press, p. 142.
- Harris, J. (2022). *Digital Ethnography: Exploring Social Interaction in Virtual Worlds*. Routledge, p. 92.
- Bennett, S. (2021). *Digital Interaction and the Future of Ethnography*. Cambridge University Press, p. 108.
- Liberman, A. (2023). *Big Data in Ethnography: Tools and Techniques for Digital Research*. SAGE Publications, p. 76.

- Leonard, G. (2021). *Digital Communities and the Future of Social Interaction*. Oxford University Press, p. 88.
- Smith, R. (2023). *Ethnographic Research in the Digital Age: Ethical Considerations*. SAGE Publications, p. 56.
- Vila, M. (2022). *Digital Identities: Reimagining Social Interaction in the Virtual World*. Springer, p. 43.
- Bussi, M. (2023). *Ethnography and Digital Worlds: Exploring New Frontiers in Social Research*. Routledge, p. 75.
- Malbon, J. (2017). *Digital Tools for Ethnographers: Methods in the Age of Technology*. Routledge. – –
- Langer, R. (2013). *Culture and Communication in the Digital Age*. Wiley-Blackwell.
- Booth, D. (2016). *Analyzing Digital Cultures: A Critical Approach to the Digital Turn*. Springer.
- Kozinets, R. V. (2015). *Netnography: Redefined*. SAGE Publications.
- Markham, A. N. (2017). *Ethical Considerations in Digital Research*. In *The Handbook of Online and Social Media Research*. Wiley-Blackwell.
- Malinowski, B. (1961). *Argonauts of the Western Pacific: An account of native enterprise and adventure in the archipelagoes of Melanesian New Guinea* (2nd ed., p. 25). London, UK: G. Routledge & Sons; New York, NY: E. P. Dutton & Co
- Geertz, C. (1973). *The Interpretation of Cultures: Selected Essays* (1st ed., p. 6). New York, NY: Basic Books.
- Mead, M. (1963). *Sex and Temperament in Three Primitive Societies* (Revised ed., p. 42). New York, NY: William Morrow & Co.
- Spradley, J. P. (1980). *Participant Observation* (1st ed., p. 88). New York, NY: Holt, Rinehart, and Winston.
- Willis, P. (1977). *Learning to Labour: How Working-Class Kids Get Working-Class Jobs* (1st ed., p. 15). Farnborough, UK: Saxon House.
-

dictionaries

- *al Social Interactions*. Oxford University Press, p. 89.

magazines

- عبد الله، عماد بن. (2023). "الإنثوغرافيا في العوالم الافتراضية: الألعاب الإلكترونية ودورها في فهم الهويات الرقمية"، مجلة الأنثروبولوجيا الرقمية، 12(2)، 63-78.
- العتيبي، فاطمة. (2023). "العوالم الافتراضية في العالم العربي: بناء الهويات الرقمية في الفضاءات الموازية"، مجلة دراسات الثقافة الرقمية، 17(4)، 98-111.
- الهاشمي، محمد. (2022). "التوثيق الرقمي في الإنثوغرافيا: الأدوات والمنهجيات"، دراسات في التكنولوجيا الحديثة، 11(3)، 67-75.
- الزهراني، عبد الله. (2023). "الهوية الرقمية في الفضاءات الرقمية: التحديات الثقافية والاجتماعية"، مجلة الدراسات الثقافية، 16(1)، 115-127.
- الهاشمي، محمد. (2022). "البيانات الضخمة في البحث الإنثوغرافي: أدوات وتقنيات جديدة"، دراسات في التكنولوجيا الحديثة، 11(3).
- Khaleel, A. (2022). "Ethical Dilemmas in Digital Anthropology: The Case of Virtual Communities," *Journal of Digital Anthropology*, 11(2), p. 74.
- Paccagnella, L. (2017). *The Challenges of Digital Ethnography*. *Communication Theory*, 27(3).